المحاضرة 04: تطور الفكر الاجتماعي في الفترة المعاصرة

يمكن القول أن الأحداث والتغيرات المتلاحقة التي شهدتها المجتمعات الأوربية وعلى وجه الخصوص المجتمع الفرنسي مع أواخر القرن الثامن عشر وقد هيأت الظروف الموضوعية المناسبة لإنصراف الفلاسفة والمفكرين ودعاة الإصلاح الاجتماعي الاهتمام بالشؤون المتعلقة بالحياة الاجتماعية للبشر وعلاقاتهم ببعضهم وما تفرزه تلك العلاقات من ظواهر اجتماعية.

وقد أدت هذه التغيرات إلى تفاقم الأزمات التي تعاني منها تلك المجتمعات وتتنامى حماسة الجماعة ولقد تصاعدت في أوساط الفلاسفة والمفكرين ودعاة الإصلاح الدعوة إلى إعادة ترتيب الحياة الاجتماعية من خلال إعادة النظر في أسس التنظيم الكلي للمجتمع وفي مقدمتها: (قوى العمل، وأساليب الإنتاج ودعائم السلطة) وما إن استقرت الأوضاع في صالح الطبقة البرجوازية التي أخذ تأثيرها يتزايد في أعقاب الثورة الفرنسية وتبلور ما صار يسمى "عصر التنوير" أي عصر العقلانية وقد ظهر إزاء ذلك موقفان فكريان هما:

- موقف ثوري راديكالي.
- موقف محافظ إصلاحي.

1- **الموقف المحافظ الإصلاحي:**

فتمثل في الموقف الذي اتخذه عدد من المفكرين وفي مقدمتهم أولئك الذين اعتبروا روادا ومؤسسين لـ "علم الاجتماع" وهما كل من "أوغست كونت" و "إيميل دوركايم" الذين نظرا إلى النظام الاجتماعي القائم في المجتمع الفرنسي على أنه نهاية المراحل التاريخية السابقة وخاتمة للماضي وبالتالي يجب التعامل معه كما هو كحقيقة قائمة بذاتها مما يعني أنهما كانا مقتنعين بوجوب تجميد حركة التاريخ والمجتمع، ووفقا لهذه الرؤية وضمن حدودها يتعين علينا أن ننظر إلى نشأة (علم الاجتماع) ففي حين حاولت الفلسفة الماركسية أن تطرح تصورا معينا لواقع المجتمع الأوربي خلال القرن التاسع عشر يتضمن تشخيصا لمعضلاته ووصفه لمعالجتها، فإن الطروحات الفكرية التي قدمها كل من أوغست كونت وايميل دوركايم إنما جاءت ردا لدحض الرؤية الماركسية.

أ- **أوغست كونت (1798- 1858):**

كان كونت فيلسوفا اجتماعيا فرنسيا برز نشاطه الفكري خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ذلك النشاط الذي جعل منه الأب المؤسس لعلم الاجتماع.

يمكن تلخيص أهم أفكاره وطروحاته في:

اعتقد أن تأخر الإنسان في التوصل إلى المعرفة العلمية الموضوعية أمر طبيعي لأن الفكر الإنساني مر في عملية تطوره بمراحل وهي:

- الحالة اللاهوتية: وهي تفسير التطورات والتغيرات في العالم إلى قدرة خارقة غير مرئية إلاهية.
- الحالة الميتافيزيقية: وهي تفسير وجود الأشياء والموجودات وحدوث الظواهر من خلال عزوها إلى تأثير قدرات الآلهة ووجود قوى كامنه في الأشياء هي التي تؤثر وتؤدي إلى إحداث الظواهر.

- الحالة الوضعية: وهي الحالة التي توصل فيها الإنسان إلى الاعتماد على العقل والعمل في فهم ما يجري من حوله من ظواهر

إن كونت كان يعتزم أن يسمى هذا العلم الجديد ب " الفيزياء الاجتماعية" إلا أنه سرعان ما صرف النظر عن هذه التسمية بعد أن نشر البحث البلجيكي "أدولف كيتليه" مجموعة دراسات إحصائية عن المجتمع أطلق عليها اسم"الفيزياء الاجتماعية" ومن ثم فقد عمد إلى اشتقاق كلمة (سوسيولوجيا أي كلمة علم الاجتماع والتي تنقسم إلى مقطعين:

لوجي logy علم كلمة يونانية، وأخرى لاتينية socio بمعنى مجتمع (اجتماع).

ارتبط علم اجتماع عنده بعدة طروحات تأتي في مقدمتها: الرغبة في الإصلاح الاجتماعي وعلاج الفوضى التي سادت المجتمع الفرنسي بعد الثورة غير أن كونت كان يرى أن هذا الإصلاح ينبغي أن يتم في إطار النظام الاقتصادي والسياسي الناجم عن تلك الثورة، جاء التعبير عن هذا الاتجاه المحافظ في طروحات كونت من خلال تأكيده على فكرة التوافق أو التوازن فالمجتمع عنده هو: "نسق اجتماعي متوافق أو متوازن أو هو كل منسجم متناغم تتساند أجزاؤه وتتفاعل مع بعضها البعض، بل لا بد أن يكون هناك أيضا بين الكل والأجزاء التي تشكل منها النسق الاجتماعي".

اعتقد أن هذا الانسجام لا يتحقق إلا من خلال الوحدة الفكرية والأخلاقية وتبعا لذلك يغدو الكائن العضوي-الاجتماعي متماسكا وصحيحا أما الطابع الإصلاحي الذي اتسم به فيتجلى في الانزعاج الذي كان "كونت" يبديه من جراء تأكيد بعض المفكرين المعاصرين له على أهمية الاعتبارات المادية والاقتصادية في مجال تنظيم المجتمع واعتقد أن هذه الأفكار الثورية من شأنها أن تحرض أبناء الطبقات الدنيا على التمرد، ويفهم من هذا النظام أن كونت يؤكد على فكرة أساسية مفادها أنه من العبث محاولة تغيير النظم القائمة وإنما ينبغي بدلا من ذلك العمل على إعادة تنظيم الأخلاق بحيث تستطيع كل الطبقات التوافق مع ظروفها الاجتماعية لأن كونت ارتأى أن العلاج الأمثل لكافة المشكلات الاجتماعية يتحقق مع حلول المرحلة الوضعية وسيادة الطابع الوضعي على سائر أركان المجتمع وفعالياته إذ عندها يتحقق الخضوع التام للعقل وتطبيق القوانين العلمية وهكذا تغدو الفلسفة الوضعية هي البديل البناء لذلك العلاج العقيم الذي يقدمه الاتجاه الثوري الماركسي.

ومن ناحية أخرى إن ما يلاحظ أن كونت على العكس ما دعت إليه الماركسية قد حاول إقصاء الجماهير تماما عن المشاركة في إدارة المجتمع وتنظيمه وعن رسم السياسة العليا له وذلك على أساس أن هذه الوظيفة هي وظيفة علماء الاجتماع وخبراء التنظيم وذهب إلى أنه ليس من حق الجماهير التساؤل عن أشياء أو أمور تفوق مستوى قدراتهم ومؤهلاتهم بل ذهب علاوة على ذلك إلى اعتبار أن فكرة المساواة ما هي إلى فكرة دوغماتية أفرزتها بعض المبادئ الفوضوية المخالفة لفكرة النظام.

ب- إيميل دور كايم (1858- 1917):

إذا كان أوغست كونت قد وضع أسس علم الاجتماع فإن الذي حدد موضوعه ومنهجه هو دوركايم بالنسبة لفلسفته فإنه ركز على فكرة التضامن الاجتماعي والتي جاءت كرد فعل للحركة الاشتراكية وما أظهرته

من قوة ونفوذ سياسي في المجتمع الأوربي وما قدمته على الصعيد الفكري من تحليلات سيوسيولوجية وما اقترحته من حلول لمشكلات المجتمع فأراد دور كايم أن يقدم صيغة بديلة قادرة على التصدي للحركة الاشتراكية وذلك من خلال كتابه "تقسيم العمل الجماعي" والذي حاول من خلاله إثبات أن ظاهرة تقسيم العمل ظاهرة نامية وحتمية في المجتمع الحديث ومن شأنها أن تؤدي إلى تحقيق شكل ‘لى من أشكال التضامن الاجتماعي وهو التكامل العضوي للمجتمع.

هذا التصور الجديد الذي يقدمه دوركايم يقف في مواجهة التصور الماركسي للتطور الاجتماعي فوفقا لتصور دوركايم لا يعود المجتمع بحاجة إلى ثورة أو إلى إعادة صياغة العلاقات البنائية في المجتمع وذلك لأن التوازن والتكامل هي حالات سوف تحقق تلقائيا من خلال نمو المجتمع وتقدمه أو بالأحرى مع تنامي ظاهرة التخصص وتقسيم العمل.

2- **الاتجاه الراديكالي:**

ظهر الموقف الثوري من خلال الدعوة التي بشرت بها الحركات الاشتراكية التي راجت في المجتمعات الأوربية بالأخص تلك الحركة التي تزعمها كارل ماركس (1818- 1883) ورفيقه فريدريك إنجلز (1820- 1895)

- **كارل ماركس (1818- 1883)**

ولد ماركس في 05 ماي 1818م في مدينة تريف التابعة لبروسيا وكان والده يشتغل بالقانون من عائلة أصلها يهودي ثم اعتنقوا الديانة البروتستانتية فيما بعد درس الحقوق ثم الفلسفة نال شهادة الدكتوراه سنة 1841م في سنة 1842 أصبح رئيس تحرير صحيفة راينتيخ تسايتونغ تأثر ماركس بفلسفة هيجل نتيجة لأفكاره رفض طلبه للتدريس في الجامعات الألمانية فرحل إلى فرنسا التي كانت معقل الاشتراكيين تأثر بفكر سان سيمون، ومنذ سنة 1847م توطدت العلاقة بينه وبين زميله إنجليز، فماركس هو فيلسوف ثوري واقتصادي درس الاقتصاد الانجليزي والفرنسي، كتب عدة مقالات وألف كتب منها "بؤس الفلسفة" و "الاقتصاد السياسي والفلسفي" .

- **كارل ماركس وعلم الاجتماع :** عاصر كارل ماركس تأسيس علم الاجتماع على يد أوغست كونت لكنه لم يستعمل هذا المصطلح بل أنه هاجم علم الاجتماع الذي وضعه كونت فتصور كارل ماركس للمجتمع استند إلى مسلمات حيث يقول ميلز حول هذه النقطة "إذا كان علماء الاجتماع يدرسون تفاصيل وحدات اجتماعية صغرى فإن ماركس يدرس نفس هذه التفاصيل على مستوى بناء المجتمع في كليتيه وإذا كان علماء الاجتماع الذين لا يعرفون من التاريخ إلا القليل يدرسون الاتجاهات القصيرة المدى فإن ماركس يأخذ الحقبة بأجملها باعتبارها وحدة الدراسة مستخدما في ذلك المواد التاريخية بقدرة خلابة"، فعلم الاجتماع عند ماركس وثيق الصلة بعلم الاجتماع المعاصر .

حاول ماركس أن يقدم نظرية منظمة عن البناء الاجتماعي والتغير الاجتماعي واستند في ذلك إلى المادية التاريخية التي تسلم بأن المجتمع هو كل منظم تعتمد أجزاؤه الواحدة منها على الأخرى بطريقة لا تكون فيها معتمدة على أي شيء، وتفترض هذه النظرية جدلا أننا يمكن أن نميز المجتمع وبيئته بنفس الطريقة التي نميز بها بين النبات والمناخ وبذلك يمكننا أن نسلم بأن تاريخه عبارة عن نوع من النمو وأن بناءه يحدد تطوره وأن

الأجزاء المعتمدة بعضها على بعض ليست هي الأفراد رجالا ونساء وإنما هي النظم الاجتماعية، لقد بدأ ماركس تحليله للعناصر المكونة للمجتمع من مفهوم الطبيعة البشرية أو تصوره للإنسان وهنا يتعين علينا أن ننظر للإنسان في ضوء السياق الثقافي وليس منفصلا عنه وسنجد الإنسان حيوان واعي وغرضي ويقصد بالوعي هنا وعي الإنسان بنفسه وبيئته، والعنصر الجوهري في هذا الوعي هو وعي الإنسان بأن البيئة تقف في عداء له، والشيء الذي يميز هذا الوعي هو العمل الذي يهدف إلى الحصول من البيئة على وسائل حفظ حياة الفرد والنوع ومن ثم كان صراع الإنسان مع بيئته بمثابة صراع في سبيل السيطرة على الطبيعة.

تتبع كل من ماركس وأنجلز تطور الجنس البشري من صورة إلى أخرى من صور المجتمع فذهبا إلى أن الناس أثناء عملية الإنتاج الاجتماعي يدخلون في علاقات محددة وضرورية ومستقلة عن إرادتهم وتتطابق هذه العلاقات مع مرحلة محددة من تطور قوى الإنتاج المادي، ومجموع علاقات الإنتاج هذه يؤلف البناء الاقتصادي للمجتمع، أي الأساس الواقعي الذي يقوم عليه بناء فوقي حقوقي وسياسي وتطابقه كذلك أشكال معينة من الوعي الاجتماعي، إن أسلوب إنتاج الحياة المادية يكيف تفاعل الحياة الاجتماعي والفكري والسياسي بصورة عامة، فليس إدراك الناس هو الذي يحدد معيشتهم، بل معيشتهم هي التي تحدد إدراكهم، وعندما تبلغ قوى المجتمع المنتجة المادية درجة معينة من تطورها تدخل في تناقض مع علاقات الإنتاج الموجودة أو مع علاقات الملكية، وهنا يشير إلى البناء الطبقي الذي يعد السمة الأساسية لكل مجتمع،وذهبا إلى أن ملكية وسائل الإنتاج هي العلاقة الاجتماعية التي ينشأ على أساسها مركب العلاقات الاجتماعية بأسره خلال عملية الإنتاج.

تحتل نظرية الطبقات الاجتماعية مكانة أساسية في أعمال ماركس وقد أحدثت معالجته لهذا الموضوع أثر كبير على الفكر الاجتماعي الحديث بأكمله ذلك أن ماركس قد أفلح في أن يقدم صورة للمجتمع الحديث باعتباره يستند إلى واقع طبقي متماسك، وقد عرف ماركس الطبقة الاجتماعية بأنها تجمع من الأشخاص يؤدون نفس الوظيفة وفي عملية تنظيم الإنتاج فالأحرار والعبيد والسيد الخادم أو بعبارة أخرى المستغل والمستغل هي كلها مسميات لطبقات اجتماعية في عصور مختلفة فالعمل هو صورة الإنسان الأساسية لتحقيق الذات فلا يمكن لأي إنسان أن يحيا بدون عمل، في مناقشته لتطور البرجوازية والبروليتاريا فيقول أن طبقة البرجوازية امتصت كل الطبقات بصورة تحولت معها هذه الملكية إلى صورة رأس المال الصناعي أو التجاري بينما تحولت أغلبية المعدمين القدامى فجعلتهم ينضمون تحت لواء طبقة جديدة هي طبقة البروليتاريا فكأن الطبقة الاجتماعية عند ماركس تعبر عن الظروف الموضوعية لحياة الجماعة ويعتبر العداء الطبقي أمرا جوهريا لتكوين الطبقة فبدونه ينعدم التنافس بين الأفراد، فتاريخ كل مجتمع عند ماركس هو تاريخ الصراع بين الطبقات.

حاول ماركس أن يقدم تفسيرا علميا للتغير الاجتماعي يقوم على عدة قضايا أساسية منها أن تاريخ كل حقبة يقدم لنا معلومات مؤكدة على الطرق السائدة لإنتاج الثروة والتبادل وأن كل تنظيم اجتماعي يخضع لتغير مستمر بالإضافة إلى أن التنظيم الاجتماعي له صلة بالبناء الاقتصادي وأن كل التنظيمات الاجتماعية هي تنظيمات متدرجة فهي تنطوي على صراع بين الطبقات وهكذا يخضع الأساس الاقتصادي لتطور مستمر.